عبد الله بن الحسين وعباس الثانى

للأستاذ أحمد رمزى

بقية ما نشر فى العدد ٩٤٨ — ٣ سبتمبر ١٩٥١

كتب عبد الله بن الحسين مذكراته وطبعها فى لندن وجاء فى نسخة بالإنجليزية وقعت ليدى ، اطلعت فيها على الفصل العاشر المسمى «الحرب» ، وكانت إحدى المجلات الأسبوعية قد نشرت قسما منه فى مصر نقلا عن الصفحة ١٢٨ جاء فيه « لقد زارنى الخديو عباس فى عمان وكان ذلك إبان حكم الملك فؤاد الأول لمصر وقال لى الخديو « هذا هو القدر وأنا غير نادم على شئ » ، لقد تمت بعد أن حكمت ٢٥ سنة كاملة وأن عمى الملك فؤاد الذى يحكم مصر الآن يعانى ما كنت أعانيه — إن من الصعب أن ترضى شعبنا — الشعب المصرى — ومن الصعب أن ينتهى الاحتلال البريطانى لأن الإنجليز أقوى منا بحيث لا نستطيع طردهم » ثم قال لى الخديو بصوت حزين « إن الشئ الوحيد الذى أنا آسف عليه فعلا هو أنى أعيش بعيدا عن البلاد الإسلامية فلا أستطيع أن أرى مآذن المساجد أو أسمع الأذان للصلاة منبعثا منها ، إنى أخاف أن أموت بعيدا عنها وأن أدفن فى أرض غربية

ولما اطلعت فى الأصل الإنجليزى على هذه الفقرة بالذات عادت إلى ذكريات الحوادث والأيام التى عشتها بمدينة القدس بين سنة ١٩٣٥ ، ١٩٣٧ فقد حضرت طرفاً من هذا الموضوع الذى أثاره عبد الله بن الحسين وكان لى معه حديث فيه ، كما أننى دعيت إلى حفلة أقامها الخديو السابق ، ولما استأذنت الحكومة فى حضورها جاءتنى برقية غربية تقول بادعاء المرض والتزام الفراش فى نفس الوقت الذى كنت مقيما فيه بالفندق الذى نزل فيه الخديو السابق

إن حوادث هذه الأيام تقع فى شهر يناير سنة ١٩٣٦ ومقابلة

والخلق ، وذهب إلى غير رجعة من يسلك الطريق بالمال

غير أن انهيار أصحاب المال لا يكفى وحده فى إصلاح الحال ؛ فأنت تعرف ولا ريب سلطان العادة على النفوس . وقد درج الكثيرون فيما سبق على كسب المال من طريق العلم والاتجار فيه ، وتزييف الكتب ودفعها إلى السوق ، متسترين باسم الألقاب العلمية التى حصلوا عليها بأسباب غير شريفة . وهؤلاء وأولئك لن يعفوا عن باب اعتادوه وكان يدر عليهم الذهب . وسوف يكون موقفهم كموقف الأحزاب السياسية التى رفضت الدعوة إلى التطهير حتى أرغمت عليه

لذلك نحن فى حاجة إلى تطهير جبهة العلم من الأدعياء السفسطائيين بحركة جريئة تجتث الرؤوس الفاسدة ، وقد تعفنت من الفساد ، ولا يرجى معها إصلاح

إن قوة الأمة تقاس بانتشار العلم الصحيح بين أبنائها ، لا بمقدار ما يملكه أفرادها من مال . وجدير بمصر وهى فى فجر ثورتها أن تعول على الطريق الجدى الموصل حقا إلى تقويتها ، وهو العلم . ولن يتيسر ذلك إلا بإصلاح هيئات التعليم ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالعمل الخالص لوجه العلم والابتعاد عن فتنة المال كما كان الحال فى صدر الإسلام ، حين كان العلماء يقومون بتعليم الناس حسبة لوجه الله ، لا يتناولون على تعليمهم أجرا . بل إن فقهاء الدين أصحاب المذاهب كأبى حنيفة وابن حنبل ، لم يعرف عنهم التكسب بالفقه ، بل كان للواحد منهم صناعة يعتمد فيها على معاشه ، مثل أبى حنيفة الذى كان بزازا

فأين علماء اليوم من علماء الأمس ؟

عاش علماء الأمس فقراء طول حياتهم ، فخلد اسمهم على الزمان ، وظلت آثارهم باقية حتى اليوم ، وتنعم علماء اليوم فى رغد من العيش وفيض من الثروة ، فقتلوا أنفسهم ، وقتلوا أمتهم معهم

فليبتعد العلماء عن فتنة المال حتى ينزهوا العلم عن الشوائب ، وحتى يكونوا قدوة صالحة للطلاب ، وعاملا فى بناء مجد مصر

ليبتعدوا عن هذا كله قبل أن تمتد إليهم يد الثورة فتحرقهم

أحمد فؤاد الأهوانى

الخديو عباس مع عبد الله بن الحسين تقع فى شهر رمضـان ، أما الدعوة إلى حضور مأدبة الخديو السابق فقد كان محددا لها يوم ١٩ فبراير سنة ١٩٣٦

ولشرح ما جاء فى تلك الأيام عدت إلى مذكراتى فى تلك الفترة بالذات التى حضر فيها الخديو الســابق إلى مدينة القدس ونزل فى فندق الملك داود (كنج دافيد) وقام بزيارة القنصليـة المصرية وطلب إلى بعد تقديم القهوة له أن يرى المكاتب وطريقة العمل فيها . فرافقته فى زيارته وقدمت إليه الموظفين ، واحدا واحدا ، وكان السرور باديا على وجهه لأنه بعد سـنوات طويلة اتصل لأول مرة بعد اعتزاله الحكم بمكتب مصرى رسمى تابع للحكومة المصرية التى بقى على رأسها اثنين وعشرين عاما

وقد لاحظت بعد وصوله كثرة عـدد الرواد المصريين فى فلسطين ولكل منهم وجهته الخاصة وكانت آمالهم تتجه إلى تنسم أخباره، وكان من بينهم من يعرف جيدا كيف يستغلون الخديو السابق ويحصلون على أمواله ، وكان منهم من أتقن طريقة استغلال مصر لمنفعتهم والقيام برحلات على حسـاب المصاريف السرية للتمتع برؤية فلسطين

وكانوا يحضرون إلى القنصلية للتحية ، ويكفى الحديث معهم عدة دقائق لتفهم الوضع الصحيح لعواطفهم واتجاهاتهم، فقد زارنى كثيرون من رجال السياسة والأعيـان وأهل الرأى ورجال الصحافة . أذكر من ذلك تصريح أحـد الصحفيين المعروفين الآن بقوله لى « إن إحدى الجرائد المصرية المشهورة لم تكن على وفاق تام مع السراى الملكية، وأنه وفق بناء على جهوده إلى إزالة هذا البرود وذلك حينما أقنع صاحب هذه الجريدة بأن يطبع عددا ممتازا خاصا بأعمال فؤاد الأول فى المدة التى حكم فيها » صرح بهذا لى فى الوقت الذى كان دائم الاتصـال بالخديو السابق ويعمل لحسابه ...

وكان عباس حلمى الثانى يتبع نظاما خاصا للأكل، ولذا اعتاد الحضور إلى الفندق فى الساعة السابعة مساء لتناول العشاء ، وكان ينتهى منه فى الساعة الثـامنة وهو الوقت الذى أدخل فيه قاعة الطعام . فكان يتفضل بتحيتى ويدعونى للجلوس معه فى ردهة الفندق وهناك يجتمع حوله الزوار المصريون فتأتيه أنباء المفاوضات القائمة بمصر بقصر الزعفران وما تم فى الجلسات من المناقشات وما تبودل من الرأى فيها ، وكان يعلق على ذلك جميعه بأسـلوب الرجل المتمكن فهمه لتطور سـياسة بلاده وعلاقتها بتطور السياسة العالمية

وفى بعض الأحيان كان يحضر المجلس المرحوم سليمان فوزى فيحدث كيف كان أحـد الذين ضربوا بالمسجد الأقصى عند اجتماع المؤتمر الإسـلامى الذى عقد هناك فأثار ضحك المجلس بأسلوبه الفكه النادر

وفى ليلة من الليالى بعد انصراف الخديو السابق التفت إلى أحد المشتغلين بالسياسة فى مصر ووجه حديثه إلى قائلا « لا تنسنا يا رمزى فى تقاريرك التى سترسلها حتما عما دار فى هذه الجلسة من أحاديثنا» وهنا جمد الدم فى عروق ورددت عليه بقولى : «إن لحكومة مصر ألف وسيلة لكى تعلم ما دار فى هـذا المجلس من الأحاديث وهى لا شك ستعلم ما دار هنا ، أما أنا فلا أجد فيها من الأهمية والخطورة مايصح أن تعلق مصر أهمية عليه ؛ ولكنى أذكر جيدا كيف اجتمع البعض فى تركيا وقابلوا الخديو الذى كان جالسا معنا منذ لحظة : وحينما انصرف وانفض الجمع بادر كل واحد لتقديم تقرير هزيل عما تم فى هـذه المقابلة وما تحدث به إخوانه وأصحابه » واستأذنت للذهاب إلى حجرتى

* * *

وإنى لأعجب لهؤلاء الذين يملأهم الغرور ، ويدعون العلم بالسياسة ويتظاهرون بانتقاء الأخبـار والتقرب زلفى إلى ذوى السلطان ، ويتنقلون بين مختلف الأحزاب والهيئات ، كيف كانوا يعيشون ويحلمون فى وقت دائم الحركة والعمل والإنشاء

وقد ملأ الأسى نفسى لما فكرت فى هؤلاء النكرات وأنا أقلب صفحات مذكراتى عن تلك الأيام فوقع نظرى على ما كتبته فى يوم ٤ فبراير ١٩٣٦

« حضر إلى إدوارد صمويل نجل هربرت صمويل المنـدوب البريطانى الأسبق فى فلسطين ، وهو يشغل وظيفة وكيل مصلحة المهاجرة بحكومة الانتداب ... فقال لى

« إن الصحـافة المصرية تصل بانتظام كل يوم إلى فلسطين أى فى اليوم الذى تصدر فيه بالقاهرة ، ولها تأثير غريب فى عقلية

أهل البلاد العرب فهى تلهب حماسهم وتجعلهم يفتحون أنظارهم كل صباح على أحوال العالم الخارجية والاتصال بتطورها » ، وقال « إنه علم بأن الوزارة المصرية الجديدة أقدر من سابقتها على فهم مركز مصر الدولى »

ثم أردف بقوله « إن مركز قنصلية مصر هنا هام لكثرة المصريين المهاجرين إلى فلسطين ولكثرة أعمالها واتصالها بالهيئات الرسمية وغير الرسمية (يقصد الوكالة اليهودية والهيئات العربية) ولكن حكومة مصر لا ترسل إلى هذا المكان إلا من كان مغضوبا عليه فى بلاده » وهنا قاطعته وقلت « أنت مخطئ فى هذه الناحية لأننى كنت أشغل وظيفة أقل من هذه ثم رقيت إليها » قال : « أقصد أن حكومة مصر لا تقدر هذا المركز تماما ولا تعلق عليه ما يستحق من أهمية . وقد سمعت من الكثيرين من رجالكم الرسميين وغيرهم من أن القناصل المتقيدمين فى السن والذين لا يصلحون فى شئ هم الذين يرسلون إلى القدس »

ثم صرح بما يأتى « إن شرق الأردن تحسد فلسطين على حالة الرواج فيها ، وأهل فلسطين يحسدون مصر لأنها بلاد من أغنى بلاد الأرض وبشكل لا يتصوره أحد منكم. ويظهر أن الحكومة المصرية ورجالها الرسميين لا يقدرون هذا وكانت كلمته بالإنجليزية»

It seems that Egyptians do not realise it

فى الوقت الذى يتحدث فيه ابن هربرت صمويل وهو بريطانى يهودى عن هذه الأمور الهامة التى ذكرتها وعن إمكانيات مصر التى لا يمكن تحديدها من ناحية الثروة والانتعاش والتنمية الاقتصادية ويظهر قلقه من أثر الصحافة المصرية فى نهضة الشعوب العربية كان جماعاتنا من المصريين يفكرون فى نقل حديث عن بعضهم أو يظهرون أهميتهم فى التقريب بين صحيفة يومية ورجال الحاشية بإخراج عدد ممتاز عن أعمال الملك السابق فؤاد الأول

فى غمرات هذه الحوادث تلقيت الدعوة التى أشرت إليها لحضور المأدبة التى أقامها الخديو السابق فى فندق أريحا ودعا إليها المندوب السامى البريطانى وعبد الله بن الحسين وطائفة من رجال حكومة الانتداب وحكومة شرق الأردن ، ولا شك فى أن حضور ممثل مصر فى تلك المأدبة كان لازما إن لم يكن لإعطاء صورة واضحة عما دار فى تلك المأدبة فعلى الأقل لإظهار أن ماتم الاتفاق عليه بين العرش والخديو السابق كان جديا ولا أثر لبقاء أى اختلاف بين الجالس على العرش وابن أخيه

ولكن تلقيت ردا على برقيتى التى أرسلتها إلى الخارجية أدهشنى غاية الدهشة ، وهو الذى يقول « الزم حجرتك وادع المرض » ؛ وكان عبد الله البشرى فى معية الخديو السابق ، يتصل بى كل يوم لمعرفة رأيى فى قبول الدعوة أو رفضها . فلما علمت بمضمون هذه البرقية الرمزية لم أجد مناصا من الاعتذار ، ولكن الأسلوب الذى فرض على أن أعتذر به لم يقنعنى . . وفى صباح اليوم التالى وهو يوم ١٨ فبراير نشرت الصحف خبر زوبعة ترتب عليها فقدان عدد من مراكب الصيد المصرية على شواطئ فلسطين ، وأن بعض البحارة وصل إلى الموانئ فى غزة ويافا ؛ فانتهزت فرصة هذا النبأ ، واتخذته مبررا لتغيبى عن القدس واعتذارى عن قبول دعوة الخديو السابق . وكنت تلقيت فى نفس اليوم دعوة من راغب النشاشيبى عن حفلة شاى أقامها فى منزله للخديو السابق ؛ فبدأت بالاعتذار عنها لاضطرارى للسفر ثم اعتذرت عن مأدبة الخديو السابق فى اليوم التالى

ونشرت صحف يافا خبر وصولى لتتبع حوادث مراكب الصيد المصرية التى تعرضت للخطر بعد الزوبعة التى هبت فى البحر الأبيض المتوسط ؛ وفعلا ذهبت إلى يافا وتنقلت منها إلى غزة وما حولها

وبعد ثلاثة أيام عدت إلى مدينة القدس . ولما قابلنى الخديو السابق ابتسم ، فقد كان يعلم عن أساليب الحكومة المصرية فى أيامه وبعد عهده أكثر مما أعلم ، وإن كان أقرنى على الطريقة التى اتبعتها

كان اتصالى بحكومة شرق الأردن دائما وباستمرار ؛ ولما اقترب شهر رمضان وكنت فى ذلك الوقت أتم صيامه كاملا سواء كنت فى الشرق أو فى الغرب ، رأيت من واجبى أن أذهب إلى عمان وأهنئ عبد الله بن الحسين بحلول هذا الشهر المبارك وأعلمه بأننى سأقضيه فى مدينة القدس ، ولن أحضر لزيارته قبل حلول عيد الفطر لأقوم بواجب التبريك

قمت مبكرا على نية قضاء ليلة بعمان ، أرتب فيها موعدا للمقابلة

ثم أعود فى اليوم الثانى ، وكانت دهشتى عظيمة حينما دخلت حجرتى فأعلمت بأن الشريف جميل ناصر رئيس الديوان والسيد الخطيب مستشار الأمير ينتظراننى بحجرة الاستقبال ، فنزلت لمقابلتهما حيث أخبرنى الأول بأن الأمير يدعونى لتناول الغداء معه ، وأنه فى شدة الاشتياق لرؤيتى ولا يقبل أى اعتذار للتخلف عن هذه الدعوة . فطلبت منهما إمهالى لتغيير ملابسى ثم ذهبت برفقتيهما إلى قصر الإمارة ، حيث استقبلت استقبالا كما يقول الأتراك (فوق العادة) ورافقنى فى الدخول إلى الأمير ضابط مصرى اسمه خاطر ، كان يعمل فى الجيش الأردنى ، التحق به بعد ترك خدمة الجيش المصرى فى السودان وحضر هذه المأدبة الأمراء أنجال عبد الله بن الحسين ، والشريف جميل ناصر والد الملكة زين ومستشار الأمير وغيرهم ، ولم يدر فى المأدبة حديث خاص ، وعند انتهائها أخذنى عبد الله بن الحسين ، فسرت برفقته إلى حجرة الاستقبال الكبرى حيث أجلسنى على يمينه وأقفلت الأبواب وراءنا

قال بلهجته العربية الحجازية « إنه جد حريص على علاقات المودة والصداقة التى تربطه بالعائلة المالكة فى مصر ، وعلى رأسها فؤاد الأول وهو لا ينسى ما غمره به محمد على مؤسسها من الإنعام على عائلة الشريف بما مقداره خمسة آلاف فدان من أراضى مصر وهو فى تصرفاته وأعماله يرغب رغبة أكيدة فى أن يكون محل رضا الجالس على عرش مصر ... »

« بل هو يؤمل فى ألا تفسر دعوته الخديو السابق إلى عمان تفسيرا يسىء إلى العلاقات القائمة بين البيتين العلوى والهاشمى ؛ وأما الخديو السابق فرجل قد انتهت أطماعه ، ولم يعد يرغب فى شىء من مظاهر هذه الدنيا ، وأنه أبدى لعبد الله بن الحسين رغبته فى أن يرى بلدا إسلاميا فى شهر رمضان ، بعد أن أمضى السنوات الطوال بعيدا عما تعود أن يراه فى شهر رمضان من سماع الأذان والدعوة إلى الإفطار ، وفرح الشعب بحلول شهر الصوم ، ولذلك دعاه عبد الله بن الحسين إلى تناول طعام الإفطار لديه ، وليس فى ذلك أية رغبة لإحراج مصر وحكومتها ، وإنما هو أداء لواجب صداقة وعلاقة قديمة »

ولقد دهشت لكل ما سلف ، فأنا لا أعلم بهذه الدعوة ، ولم أحضر للاحتجاج عليها ، ولا أدرى ماذا دار فى خلد عبد الله ابن الحسين ولا فى خلد الخديو السابق ، ولا فى فكر رجال الانتداب البريطانيين فى فلسطين وشرق الأردن ، وإنما جئت مهنئا بحلول شهر الصوم ، جئت مهنئا الجالس على عرش شرق الأردن بحلول هذا الشهر المبارك ، ولم أجد شيئا أقوله سوى أن صارحته بما جئت من أجله ، وأكدت عليه أننى لا أعلم شيئا ، ولا أدرى هل صدقنى عبد الله بن الحسين فى ذلك أم اعتبر مصارحتى له نوعا من السياسة الملتوية والدبلوماسية الشرقية التى اعتاد عليها رجال الشرق فى مواجهتهم للأمور واهتمامهم بالصغائر

والحقيقة التى أعلمها عن عبد الله بن الحسين رحمه الله ، وعن المرحوم عباس الثانى ، أنهما كغيرهما ممن أسندت إليهم الشؤون العامة والسيطرة على أجزاء من أقطار الشرق ، يتلهفون لمعرفة أخبار الناس وتتبعها ؛ وأذكر على سبيل المثال اليوم الذى جاء فيه أحد رجال سوريا الذين تنقلت بهم الأيام بين خدمة عبد الله بن الحسين والحكومة السعودية وقبل ذلك حكومة سوريا ، وكيف تقرب من مجلس الأمير بمجموعة من الأخبار التى أتى بها من الحجاز عن أبناء الملك ابن السعود وتصرفات الأمراء أبنائه

وأذكر جلسة مع عبد الله بن الحسين ، والتليفون لا ينقطع ينقل أخبار سيارة المندوب البريطانى بين جسر بنات يعقوب وأربد واتجاهها إلى جسر المجامع . .

إن اهتمام رجال الحكم فى الشرق بتتبع أخبار بعضهم بعضا فى الوقت الذى كانت الوكالة اليهودية تنشىء وطنا قوميا على أسس ثابتة ، أمر أصبح الآن ظاهرا واضحا للعيان ..

إن الحياة كانت تدب فى فلسطين تحت معول الحضارة الحديثة بينما كنا نحن نغط فى نوم عميق وسبات لا نهاية له ، حتى تنبه الشرق تحت ضربات النكبات والمزائم والأرزاء

أحمد رمزى

المدير العام لمصلحة الاقتصاد الدولى